الدرس الثاني

لا نزال مع هذه المنظومة الماتعة النافعة للإمام العلامة سليمان بن سحمان -رحمه الله تعالى- في علامات صحة القلب، وعرفنا أن هذه الأبيات في هذه المنظومة نظم فيها -رحمه الله تعالى- ما قرره وبينه العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- في (إغاثة اللهفان) عن علامات صحة القلب، ودلائل وشواهد سلامته، وعرفنا أن القلوب ثلاثة: قلب سليم، وقلب ميت، وقلب مريض، وما ذكره ابن القيم -رحمه الله تعالى- من تقريرات نافعة في بيان كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة.

ومما يُذكّر به في هذا المقام: أهمية دعاء الله سبحانه وتعالى بأن يمن على العبد بسلامة القلب، وفي الوقت نفسه مجاهدة النفس على صلاح القلب وزكاته، كما قال الله سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].

وأما الدعاء فقد جاء عن نبينا صلى الله عليه وسلم أدعية كثيرة تتعلق بالقلب وصلاحه، ومن هذه الدعوات ما ثبت في الطبراني وغيره عن شداد بن أوس -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (إذا اكتنز الناس الدرهم والدينار فاكتنز هؤلاء الكلمات، اللهم إني أسالك: الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسالك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، وأسالك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسالك قلبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسالك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم، إنك أنت علام الغيوب)، فهذه دعوات عظيمة، بل كنز ثمين، ينبغي على المسلم أن يظفر بهذا الكنز، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (فاكتنز هؤلاء الكلمات)، أن يظفر بهذا الكنز الثمين العظيم بحيث يدعو بهذه الدعوات المباركات مجاهدًا نفسه في الوقت نفسه على تحقيقها وتتميمها والقيام بها.

وهذه المنظومة التي بين أيدينا فيها حديث نافع ومفيد في علامات صحة القلب، ووصلنا إلى العلامة السادسة من علامات صحة القلب، وأدرج تحت هذه العلامة مشاهد ستة عظيمة جدًا ينبغي التنبه لها، وهي مشاهد ينبغي على المسلم أن يشهدها في كل الطاعات، وجميع العبادات؛ لأن شهودها يعني تمام العمل وكماله.

*** المتن ***

وأيضاً من علامته اهتمام * بتصحيح المقالة والفعال**

وأعمال ونيات وقصد * على الإخلاص يحرص بالكمال**

أشد تحرصاً وأشد هماً *** من الأعمال ثمة لا يبال
بتفريط المقصر ثمَّ فيها *** وإفراط وتشديد لغال
وتصحيح النصيحة غير غش *** يمازج صفوها يوماً بحال
ويحرص في اتباع النص جهداً *** مع الإحسان في كل الفعال
ولا يصغي لغير النص طرى *** ولا يعبأ بآراء الرجال
فست مشاهد للقلب منها *** علامات عن الداء العضال
ويشهد منة الرحمن يومًا *** بما أسدى عليه من الفضال
ويشهد منه تقصيرًا وعجزًا *** بحق الله في كل الخلال
فقلب ليس يشهدها سقيم *** ومنكوس لفعل الخير قالِ

*** الشرح ***

هذه العلامة السادسة من علامات صحة القلب.

قوله: وأيضًا: أي من علامات صحة القلب، وهي العلامة السادسة.

قوله: اهتمام بتصحيح المقالة والفعال وأعمال ونيات وقصد على الإخلاص: أي تصحيح هذه الأشياء المذكورات على الإخلاص، أن يصححها بحيث تكون خالصة لله:

الأمر الأول: المقالة. أي أقوال العبد، بحيث تكون أقواله كلها خالصة لله، لا يبتغي بها إلا الله، وهذا يتناول جميع الأقوال، جميع ما يصدر من لسانه، كالأذكار التي يأتي بها، والدعوات، والدعوة إلى الله، ونشر العلم وتعليمه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الأمور التي هي أقوال للمرء تصدر من لسانه يصححها على الإخلاص، فتكون أقواله خالصة لله، لا يبتغي بها إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثاني: الفعال وأعمال. والفعال هي الأعمال، وقد يعطف على الشيء معناه أو ما يرادفه ولا سيما في النظم، قد يقتضي مثل ذلك، فالأفعال هي الأعمال، أي أعمال الإنسان وفعاله، ما يصدر منه من أعمال، ينبغي أن تصدر منه خالصة لله، وهذا يتناول أعماله كلها، من بر، وصلة، وصدقة، وصلاة، وصيام، وحج، وغير ذلك، تكون هذه الأعمال خالصة لله لا يبتغي بها إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث: نيات وقصد. هذا أيضًا أمر واحد، فالنية هي القصد ومحلها القلب، فيصلح نيته.

إذن: ذكر أمور ثلاثة تصلح بالإخلاص، وهي الأقوال والأعمال والنيات، والإيمان الذي خلق الله سبحانه وتعالى الخلق لأجله، وأوجدهم لتحقيقه هو مجموع هذه الثلاث، الإيمان أقوال وأعمال ونيات، كما قال السلف -رحمهم الله-: الإيمان قول وعمل ونية. فالإيمان هذا هو، أمور ثلاثة: أقوال وأعمال ونية، فهذه الأمور من علامة صحة القلب، أن يجتهد في تصحيح أقواله وأعماله ونياته على الإخلاص، بأن تكون خالصة لله سبحانه وتعالى لا يبتغي بها إلا وجه الله، اهتمام بتصحيح هذه الأشياء على الإخلاص ليس وحده، وإنما وعلى أمور أخرى يأتي ذكرها، مثل قوله: وتصحيح النصيحة. ثم بعد ذلك يحرص في اتباع النص مع الإحسان، فسيذكر أمور كلها تصلح فيها النيات والأعمال والأقوال، بحيث تكون النيات والأعمال والأقوال خالصة، وقائمة على النصيحة، ويحرص فيها على الاتباع، ويجتهد فيها في الإحسان وغير ذلك.

قوله: على الإخلاص: هذا هو المشهد الأول المشاهد الستة التي ينبغي على العبد أن يشهدها في كل عبادة وفي كل طاعة.

المشهد الأول: الإخلاص. ولهذا نضع رقم واحد على كلمة الإخلاص.

قوله: يحرص بالكمال أشد تحرصًا وأشد همًا من الأعمال: أي يحرص بالكمال في أعماله وأفعاله ونياته، وتكون همته متجهة على تكميل العمل وتصحيحه بالإخلاص لله تبارك وتعالى أشد من همته في الإتيان بالعمل؛ لأن العمل دون قيام على الإخلاص لا ينتفع به، الإخلاص هو الأساس لقبول العمل، فإذن ينبغي أن يكون اهتمام العبد بإخلاص العمل أشد من اهتمامه بالعمل؛ لأن الإخلاص أساس قبول الأعمال.

قوله: ثمة لا يبال بتفريط المقصر ثَمَّ فيها، وإفراط وتشديد لغال: أي إذا كانت أعماله حتى وإن قلت، إذا قامت على الإخلاص وصدق فيها مع الله، ونصح، وأتى بهذه الضوابط التي سيأتي ذكرها، حتى لو كانت الأعمال قليلة، بعد ذلك لا يبالي بأعمال الآخرين التي إما مثلًا تجنح إلى التقصير، أو تجنح إلى الإفراط والتشديد، والناس في العبادات ثلاثة أقسام: إفراط، وتفريط، ووسط، وخيار الأمور أوساطها، لا تفريطها، ولا إفراطها.

قوله: بتفريط المقصر: أي تقصيره بالنقصان من العمل والإخلال فيه، ويأتي عمله ناقصًا قاصرًا.

قوله: وإفراط وتشديد لغال: الإفراط: هو تجاوز الحد بالغلو والزيادة في العمل، والحق وسط بين الإفراط والتفريط، وبين الزيادة والنقصان، وبين الغلو والجفاء، الحق قوام بين ذلك، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً} [البقرة:

١٣]، {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} [الفرقان: ٦٧]: أي وسطًا، لا غلو ولا جفاء.

إذن: هذا البيت فيه بيان الوسطية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم بين الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط.

قوله: وتصحيح النصيحة: هذا هو المشهد الثاني من المشاهد التي ينبغي أن يشهدها العبد في كل طاعة وكل قربى يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بها.

ومن المعلوم أن النصيحة تكون لله، وتكون لكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، والنصيحة لله تكون بحسن الإقبال على طاعة الله قبولًا وخشوعًا وذلًا وانقيادًا وامتثالًا لأمر الله سبحانه وتعالى.

قوله: غير غش، يمازج صفوها يوماً بحال: أي يحرص أن تكون أعماله قائمة على النصيحة دائمًا بحيث لا يمازجها في أي يوم من الأيام، أو في وقت من الأوقات غش، أو أي أمر خلاف النصيحة.

قوله: ويحرص في اتباع النص جهداً: هذا هو المشهد الثالث، وهو مشهد المتابعة، والتأسي بهدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، أي يجاهد نفسه في عباداته كلها، وأعماله جميعها على التأسي بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام وتحكيم كلام الله وكلام رسوله، والرد إلى كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، وكما أن الأعمال لا تقبل إذا فقدت الإخلاص، فإنها كذلك لا تقبل إذا فقدت المتابعة، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا، فهو رد): أي مردود على صاحبه غير مقبول منه، قال الله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي: وما أخلصه وأصوبه؟. قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

إذن: يحتاج العبد مع إخلاصه ونصحه أن يجاهد نفسه على الاتباع والتأسي بهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ليس للمرء أن يعبد الله بما شاء، بل يعبد الله بما شرع، وبما جاء عن رسوله الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قوله: مع الإحسان في كل الفعال: هذا هو المشهد الرابع، مشهد الإحسان، والإحسان الإتقان والإجادة، فالإحسان في العمل أن يأتي بالعمل متقنًا، بحيث يحرص العامل على تكميل العمل وتتميمه، والإبعاد

بالعمل عن كل ما ينقصه، والله يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]، والإحسان في عبادة الله هو: (أن تعبد الله كأنك تراه)، وهذا أعلى ما يكون في الإتقان في العمل، (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، أعلى ما يكون تكميلًا للعمل، وتتميمًا له، وإتقانًا في القيام به، أن يكون العامل في عبادته لله يعبد الله كأنه يرى الله، وهذه رتبة علية ورفيعة، ولهذا لما سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان، قال: أخبرني عن الإحسان. قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، أن تعبد الله عبادة متقنة تامة كاملة، بحيث تكون في وقوفك بين يدي الله، وخشوعك لله، وخضوعك لجنابه كأنك ترى الله.

قوله: في كل الفعال: أي في كل العبادات والقربات التي تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بها.

قوله: ولا يصغي لغير النص طرى، ولا يعبأ بآراء الرجال: هذا يتعلق بمسألة الاتباع التي هي المشهد الثالث، فيحرص على اتباع النص جهدًا، أي يجاهد نفسه دائمًا على اتباع النص، كلام الله وكلام ورسوله.

قوله: لا يصغي لغير النص طرى: أي دائمًا وأبدًا لا يصغي إلا للنص، لا يكون استماعه وإصغائه إلا للنص، كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

قوله: طرى: أي جميعًا.

قوله: لا يعبأ بآراء الرجال: أي التي جاءت مصادمة للنصوص وكلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وآراء الرجال كثيرة، لكن العمدة هو كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

من التطبيق العملي في هذا المعنى: قصة ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- لما ذكر لنفر من أهل اليمن سنة من السنن تتعلق بتقبيل الحجر الأسود، فقال: أرأيت إن زوحمت عليه؟. أو كلمة نحوها، قال: دعَ رأيت في اليمن. فدع عنك آراء الرجال، يعني إذا جاءك النص عول عليه واعتمده، ولا تلتفت إلى غيره من الآراء، ولو كان الدين بالرأي لكان مسح أسفل الخف أولى من ظاهره، إذا كانت المسألة بتفكير الإنسان وعقله، لكن الأمر ليس بالرأي، الأمر بالنص المعتمد.

وليس إهمالًا للآراء، وإنما هذا تحذير من الآراء الباطلة والآراء المصادمة للنصوص، ولينظر في هذا ما ذكره ابن القيم —رحمه الله- من تقرير نافع وواسع في مقدمة (إعلام الموقعين)، حيث تحدث على الرأي والموقف

الصحيح منه، وأن الرأي لا يذم مطلقًا، وإنما يذم الرأي المصادم للنصوص، أو الرأي الذي أنكرت به الصفات، أو الرأي الذي أحدثت به البدع، أو الرأي الذي يقدم على كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

قوله: فست مشاهد للقلب منها: فهذه ست مشاهد، وبقي منها مشهدان يأتي ذكرهما.

قوله: علامات عن الداء العضال: أي علامات على سلامة القلب ونجاته من الداء العضال الذي هو مرض القلب وعطبه.

قوله: ويشهد منة الرحمن يومًا بما أسدى عليه من الفضال: هذا المشهد الخامس أن يشهد المنة، وهذا في كل طاعة تتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بها تشهد منة الله عليك، وأنه لولا فضل الله عليك لما صليت، لولا فضل الله عليك لما حججت، لولا فضل الله عليك لما تصدقت، لولا فضل الله عليك لما بررت والديك، وهذا المشهد عظيم النفع؛ لأنه يطرد عن الإنسان العجب، لا يصاب بإذن الله سبحانه وتعالى بالعجب بالعمل؛ لأنه كلما عمل عملًا شهد أن هذا فضل الله عليه، لولا أن الله تفضل عليَّ ما قمت بهذا العمل، ولا حصلت مني هذه الطاعة، ولا وجدت مني هذه العبادة، مثل ما كان الصحابة —رضي الله عنهم– يقولون في رجزهم: لولا الله ما اهتدينا، ولا صمنا، ولا صلينا. قال الله تبارك وتعالى: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: ٨٣]، وقال: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ} [النور: ٢١]، وقال تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: ١٧]، ويقول: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات: ٧، ٨].

قوله: أسدى عليه: أي منَّ وتفضل.

قوله: من الفضال: أي من النعم والعطايا ومن أعظم النعم هداية الله لعبده لهذا الدين ولزوم الصراط المستقيم، والمحافظة على طاعة رب العالمين، فهذه أعظم النعم، وهي منة إلهية، فضلًا من الله ونعمة، فيشهد المنة، وهذا هو المشهد الخامس.

قوله: ويشهد منه تقصيرًا وعجزًا بحق الله في كل الخلال: هذا هو المشهد السادس شهود التقصير، مهما كمل العمل ورأى من نفسه أنه تممه عليه أن يشهد في الوقت نفسه أنه مقصر في حق الله، لا ينظر إلى نفسه يومًا من الأيام أن عمله كامل، إخلاصًا وصدقًا ونصحًا، فإن من علامة المؤمن الصادق رؤية التقصير دائمًا،

وخوف عدم القبول، كما قال الله تعالى في صفة المؤمنين الكُمّل: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} [المؤمنون: ٦٠]: أي خائفة، خائفة من ماذا؟ يعطيكم احتمالين في معنى الآية:

الأول: أي يرتكبون ما يرتكبونه من المعاصي والذنوب ويخافون أن يعاقبهم الله عليها. هذا احتمال.

الثاني: يقدمون ما يقدمون من طاعات وعبادات ويخافون أن لا يقبلها الله منهم لوجود تقصير أو خلل فيها.

أي المعنيين المراد بهذه الآية؟ جاء في المسند للإمام أحمد أن عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها– سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية، قالت: يا رسول الله: أهو الرجل يسرق ويقتل ويزني ويخاف أن يعذب؟. هذا هو الاحتمال الأول في معنى الآية، قال: (لا، يا ابنة الصديق)، إذن: ما معناها؟ قال: (ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل).

ولهذا: يؤثر عن ابن عمر –رضي الله عنهما– أنه قال: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لكان أحب إليَّ من الدنيا وما فيها.

وعبد الله بن أبي مليكة يقول: أدركت أكثر من ثلاثين صاحبيًا كلهم يخاف النفاق على نفسه.

ولهذا يقول الحسن: إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمن. المؤمن يحسن في العمل ويخاف في الوقت نفسه أن لا يقبل منه العمل، والمنافق يسيء في العمل ويرى أن عمله من أحسن الأعمال.

فإذن: شهود التقصير في حق الله سبحانه وتعالى، هذا مشهد عظيم جدًا ينبغي أن يشهده العبد في كل طاعة، في صلاته، في صيامه، في حجه، في طلبه للعلم، في تعليمه للعلم، في دعوته للناس، إلى غير ذلك يشهد نفسه دائمًا مقصر وأن حق الله أعظم من هذا الذي يفعله وأكبر.

قوله: منه: أي العبد من نفسه.

قوله: تقصيرًا وعجزًا بحق الله في كل الخلال: أي في جميع الأعمال التي يقدمها يشهد نفسه مقصرًا في حق، وأن حق الله أعظم من هذا الذي قام به أو قدمه.

قوله: فقلب ليس يشهدها سقيم: أي أن هذه المشاهد إن لم يشهدها القلب فهو قلب سقيم فيه من المرض ما فيه.

قوله: ومنكوس لفعل الخير قالِ: قالي: أي مبغض لفعل الخير؛ لأن هذه أسس فعل الخيرات التي عليها تقوم هذه المشاهد الستة العظيمة.

وكما أشرت، هذه المشاهد ينبغي أن يشهدها العبد في كل طاعة من صلاة أو صيام أو حج أو صدقة أو غير ذلك من الطاعات.

لكننا نقف وقفة مفيدة جدًا مع تقرير للإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- لتطبيق هذه المشاهد الستة في الصلاة، بحيث إن طبقها العبد وجد فعلًا في صلاته راحة له، وقرة عين، وأصبحت صلاته قرة عين له وراحة، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول: (جُعلت قرة عيني في الصلاة)، ويقول: (أرحنا بالصلاة يا بلال)، فمتى ترتقي الصلاة وتصل إلى هذه المرتبة بحيث تكون قرة عين للعبد وراحة لقلبه؟ يبين -رحمه الله تعالى- أن ذلك إنما يتحقق بشهود هذه المشاهد الستة، بينها -رحمه الله تعالى- في (رسالة إلى أحد إخوانه):

المشهد الأول: مشهد الإخلاص. وهو أن يكون الحامل عليها -أي الصلاة- والداعي إليها رغبة العبد في الله، ومحبته له، وطلب مرضاته، والقرب منه، والتودد إليه، وامتثال أمره بحيث لا يكون الباعث له عليها حظ من حظوظ الدنيا البتة، بل يأتي بها ابتغاء وجه ربه الأعلى محبة له، وخوفًا من عذابه، ورجاء لمغفرته وثوابه.

المشهد الثاني: مشهد الصدق والنصح. وهو أن يفرغ قلبه لله فيها، بحيث ما يكون في القلب شواغل أخرى أو صوارف، ويستفرغ جهده في إقباله فيها على الله، وجمع قلبه عليها، وإيقاعها على أحسن الوجوه وأكملها ظاهرًا وباطنًا، فإن الصلاة لها ظاهر وباطن: فظاهرها الأفعال المشاهدة والأقوال المسموعة، وباطنها الخشوع والمراقبة وتفريغ القلب لله، والإقبال بكليته على الله فيها، بحيث لا يلتفت قلبه عنه إلى غيره.

فهذا الذي هو الخشوع والمراقبة والإقبال بالقلب على الله، بمنزلة الروح للصلاة، والأفعال بمنزلة البدن، فإذا خلت من الروح -أي الصلاة- كانت كبدن لا روح فيه.

ثم يقول -رحمه الله-: أفلا يستحي العبد أن يواجه سيده بمثل ذلك؟ ولهذا تلف كما يلف الثوب الخلق، ويضرب بها وجه صاحبها وتقوم ضيعك الله كما ضيعتني، والصلاة التي كمل ظاهرها وباطنها تصعد ولها نور وبرهان كنور الشمس حتى تعرض على الله فيرضاها ويقبلها وتقول: حفظك الله كما حفظتني.

المشهد الثالث: مشهد المتابعة والاقتداء. وهو أن يحرص كل الحرص على الاقتداء في صلاته بالنبي صلى الله عليه وسلم، ويصلي كما كان يصلي صلوات الله وسلامه عليه، ويعرض عما أحدث الناس في الصلاة من الزيادة والنقصان والأوضاع التي لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء منها، ولا عن أحد من أصحابه.

المشهد الرابع: مشهد الإحسان. وهو مشهد المراقبة، وهو (أن تعبد الله كأنه يراك)، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق سموات مستويًا على عرشه يتكلم بأمره ونهيه، ويدبر أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه، وتعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه، فيشهد ذلك كله بقلبه، ويشهد أسماؤه وصفاته، ويشهد قيومًا، حيًا، سميعًا، بصيرًا، عزيزًا، حكيمًا، آمرًا، ناهيًا، يحب ويبغض، ويرضى ويغضب، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، ولا أقوالهم، ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها، فإنه يوجب الحياء، والإجلال، والتعظيم، والخشية، والإنابة، والتوكل، والخضوع لله سبحانه، والذل له، ويقطع الوساوس، وحديث النفس، ويجمع القلب والهمة على الله، فحظ العبد من القرب على قدر حظه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد.

أي مستويين في الركوع والسجود والقيام، لكن ما قام في قلب الأول من إحسان جعل صلاته أفضل من الآخر كالفرق بين السماء والأرض.

المشهد الخامس: مشهد المنة. -أي منة الله عليك بالتوفيق للقيام بهذا العمل، وتفضله عليك، وأنه لولا فضل الله عليك لما قمت به- وهو أن يشهد أن المنة لله سبحانه كونه أقامه في هذا المقام، وأهّله له، ووفقه لقيام قلبه وبدنه في خدمته -أي طاعته-، فلولا الله سبحانه لم يكن شيء من ذلك كما كان الصحابة يحدون بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: والله: لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا. قال الله تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: ١٧]، هو الذي جعل المسلم مسلمًا، والمصلي مصليًا، كما قال الخليل عليه السلام: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} [البقرة: ١٢٨]، وقال: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي} [إبراهيم: ٤٠].

لا يمكن أن يكون العبد من أهل الصلاة ومن المحققين لها والمتممين إلا إذا جاء له الله كذلك، ولهذا العبد يرى الإحسان ويسمع به، ويقرأه في الكتب، لكن بلوغه لذلك لا يتحقق إلا أذا جاء له الله كذلك، فالأمر بيد الله، نسأله بمنه وفضله أن يحقق لنا ذلك فضلًا منه وتكرمًا، لا حول ولا قوة إلا به، جل في علاه.

وقد قال أحد السلف من التابعين: لو أُخرج قلبي من صدري وجعل في يدي اليسرى، وجيء بالحسنات كلها، وجعلت في يدي اليمنى، لم استطع أن أجعل شيئًا منها في قلبي إلا أن يكون الله هو الذي يضعه.

قال ابن القيم –رحمه الله تعالى–: فالمنة لله وحده، في أن جعل عبده قائمًا بطاعته، وكان هذا من أعظم نعمه عليه، قال تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [الحجر: ٥٣]، وقال: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات: ٧، ٨].

ثم يكمل ابن القيم فيقول: وهذا المشهد من أعظم المشاهد وأنفعها للعبد، وكلما كان العبد أعظم توحيدًا كان حظه من هذا المشهد أتم، وفيه من الفوائد أنه يحول بين القلب وبين العجب بالعمل، ورؤيته، فإنه إذا شهد أن الله سبحانه هو المانّ به، الموفق له، الهادي إليه، شغله شهود ذلك عن رؤيته، والإعجاب به، وأن يصول به على الناس، فيُرفع من قلبه فلا يعجب به، ومن لسانه فلا يمن به، ولا يتكثر به، وهذا هو شأن العمل المرفوع.

وهذه فائدة ثمينة، العمل المرفوع عند الله إذا قام به العبد يُرفع من قلبه، وإنما قلبه مشغول بشيء آخر، ليس مشغولًا بأنني فعلت كذا، وقمت بكذا، وتصدقت بكذا، وصليت كذا، هذه أعمال قام بها، واجتهد في تكميلها، ورفعت من قلبه، يرجو ثوابها يوم يلقى الله، لكن يفكر في ذنوبه، في تقصيره، في خطاياه، في حاله، فيما يستقبل من أمره، أما العمل الذي قام به إذا قام به على الإحسان والإتقان يرفع من قلبه، لا يبقى القلب مشتغلًا به، معجبًا به، يرى العمل ويتكثر به على الناس ونحو ذلك، فلا يعجب به.

س: ما معنى يصول به على الناس؟.

ج: أي يقول مثلًا: أنا الذي فعلت كذا، وأنا الذي أصلحت كذا، وأنا الذي قمت بكذا، فإذا شهد المنة انكسرت هذه الأمور، ابتعدت عن القلب؛ لأنه هذا فضل الله عليه، ومنة الله عليه، ولولا أن الله تفضل عليه بذلك لما كان، فبدل أن يشغل القلب بالعجب، يشغل بالحمد والشكر، حمد المنعم، وشكره سبحانه وتعالى.

قال: ومن فوائده –أي شهود المنة–: أن يضيف الحمد إلى وليه، ومستحقه، فلا يشهد لنفسه حمدًا، بل يشهده كله لله، كما يشهد النعمة كلها منه، والفضل كله له، والخير كله في يده، وهذا من تمام التوحيد، فلا يستقر قدمه في مقام التوحيد إلا بعلم ذلك وشهوده، فإذا علمه ورسخ فيه صار له مشهدًا، وإذا صار لقلبه مشهدًا أثمر له من المحبة، والأنس بالله، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره وطاعته، ما لا نسبة بينه وبين أعلى نعيم الدنيا البتة، وما للمرء خير في حياته إذا كان قلبه عن هذا مصدودًا، وطريق الوصول إليه عنه مسدودًا، بل هو كما قال الله: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٣].

المشهد السادس: مشهد التقصير. وأن العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد، وبذل وسعه، فهو مقصر وحق الله سبحانه عليه أعظم، والذي ينبغي له أن يقابل به من الطاعة والعبودية والخدمة فوق ذلك بكثير، وأن عظمته وجلالته سبحانه يقتضي من العبودية ما يليق بها، وإذا كان خدم الملوك وعبيدهم يعاملونهم في خدمتهم بالإجلال لهم، والتعظيم، والاحترام، والتوقير، والحياء، والمهابة، والخشية، والنصح، بحيث يفرغون قلوبهم وجوارحهم لهم، فملك الملوك، ورب السموات والأرض أولى أن يعامل بذلك، بل بأضعاف ذلك، وإذا شهد العبد من نفسه، أنه لم يوفِ ربه في عبوديته حقه، ولا قريبًا من حقه، علم تقصيره، ولا يسعه مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار من تقصيره وتفريطه.

ولهذا شرع لنا بعد الانتهاء من الصلاة أن نستغفر ثلاثًا، {ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ} [البقرة: ١٩٩]، فالعبد يختم عمله بالاستغفار، مجالسه يختمها بالاستغفار، حتى مجالس العلم، (سبحانك الله أما بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)، وهذا ينشأ عن شهود العبد تقصيرًا في العمل، فيستغفر الله سبحانه وتعالى.

يقول: ولا يسعه مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار من تقصيره وتفريطه وعدم القيام بما ينبغي له من حقه، وأنه إلى أن يغفر له العبودية، ويعفو عنه فيها أحوج منه إلى أن يطلب منه عليها ثوابًا وهو لو وفاها حقها كما ينبغي لكانت مستحقة عليه بمقتضى العبودية، فإن عمل العبد وخدمته لسيده مستحق عليه بحكم كونه عبده ومملوكه، فلو طلب منه الأجر على عمله وخدمته لعده الناس أحمق وأخرق، هذا وليس هو عبده ولا مملوكه على الحقيقة، وهو عبد الله، ومملوك على الحقيقة من كل وجه، فعمله وخدمته مستحقة عليه بحكم كونه عبده، فإذا أثابه عليه كان ذلك مجرد فضل ومنة وإحسان إليه، لا يستحقه العبد عليه بعد، فإذا أراد الله أن يرحم عبده، وهبه نعمه عليه، وغفر له سيئاته، وضاعف له حسناته، وهذا ثابت عن أنس، وهو أدل شيء على كمال علم الصحابة بربهم وحقوقه عليهم، كما أنهم أعلم الأمة بنبيهم وسنته ودينه، فإن في هذا الأثر من العلم والمعرفة ما لا يدركه إلا أولي الأبصار، العارفون وأسمائه وصفاته، ومن هنا يفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو داود والإمام أحمد من حديث زيد بن ثابت، وحذيفة وغيرهم: (إن الله لو عذب أهل السموات، وأهل أرضه...) -أي لم يخرج ذلك عن كونه عدلًا فيه-، قال: ومن هنا يفهم معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لم يدخل أحد منكم الجنة بعمله)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟. قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)، وقال أنس بن مالك -رضي الله عنه-: يخرج للعبد يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه حسناته، وديوان فيه سيئاته، وديوان

النعم التي أنعم الله عليه بها، فيقول الرب لنعمه: (خذي حقك من حسنات عبدي)، فيقوم أصغرها، فيستنفذ حسناته، ثم تقول: وعزتك: ما استوفيت حقي.

على كل حال: يرجع إلى كلام ابن القيم بتمامه في (رسالته إلى أحد إخوانه)، وهذه الرسالة سبق أن عقدنا فيها مجالس عديدة في الكلام على فوائدها العظيمة، وما قرر فيها ابن القيم –رحمه الله تعالى– من تقريرات متينة نافعة، والفضل في ذلك أولًا وآخرًا لله وحده لا شريك له، هو وحده الموفق والمعين، والهادي إلى سواء السبيل.